أنماط الآخر في النثر العباسي

دراسة في نماذج مختارة

الباحث/ مصطفى أبو الفتوح محمود عبدالرحمن

إشراف

الأستاذة الدكتورة/ غادة جميل قرني

الملخص باللغة العربية:

جاء موضوع الدراسة متناولًا أنماط الآخر، وقد وقف البحث عند بعض النماذج المختارة من النثر العباسي مستنبطًا تشكلات الآخر، والآخر في النثر العباسي يشير إلى الشخص المختلف كليًا عن الذات، سواء كان ذلك من حيث الجنس أو العرق أو الديانة، فقد ظهرت أنماط الآخر في النثر العباسي في العديد من الكُتب والخطابات التي دُونت في تلك الفترة؛ فيمكن رؤية الآخر في شخصيات العبيد والمماليك والموالي في الرسائل والكتب؛ كما يمكن رؤية الآخر في شخصيات النساء، والأقليات الدينية، والشعوب الأخرى التي تعيش في المناطق الإسلامية الشاسعة آنذاك.

إن الآخر "السُلطة" يتجلى في الشخصية الحاكمة كفرد أو السلطة كجموع العباسيين، التي تمثّل جهة معينة، سواء أكانت سلطة سياسية أم اجتماعية أم دينية، ويتم استخدام هذا النوع من الآخر في النصوص النثرية؛ لإظهار التوازنات والصراعات بين القوى المختلفة في المجتمع، ويحاول الآخر السلطة دائمًا إبراز أحقية بني العباس بالخلافة دون غيرهم؛ مصدقًا لمبدأ الوراثة في الخلافة، وضرورة الحرب على بني أمية الظالمين المستبدين الذين أخذوا الخلافة بغير حق، ووعدهم للمسلمين بالحكم العادل على يد خلفاء العباسيين.

كما أن الآخر الأجنبي في النثر العباسي سواء أكان أديبًا أو مخاطبًا داخل بنية النص النثري ذا حضور فعال ومؤثر في أركان الدولة العباسية، لا يقل أهمية عن العنصر العربي، وإن علاقة الذات العباسية بالآخر الأجنبي تحكمها علاقات متشعبة ومتعددة الأبعاد، فهي تجمع بين العداء والصداقة، بين القوة والضعف، وبين الدين والتجارة.

كلمات مفتاحية: الآخر؛ النثر؛ العباسي؛ السلطة؛ الأجنبي.

Abstract:

The subject of the study dealt with the patterns of the other. The research focused on some selected examples of Abbasid prose, inferring the formations of the other. The other in Abbasid prose refers to a person who is completely different from the self, whether in terms of gender, race, or religion. The patterns of the other appeared in prose. Al-Abbasi in many books and speeches that were written in that period. The other can be seen in the characters of slaves, Mamluks, and mawali in letters and books. The other can also be seen in the personalities of women, religious minorities, and other peoples living in the vast Islamic regions at that time.

The other, "authority," is manifested in the ruling figure as an individual or the authority as a group of Abbasids, which represents a certain party, whether political, social, or religious authority. This type of other is used in prose texts. To show the balances and conflicts between the different forces in society, and the other authority always tries to highlight the right of the Abbasids to the caliphate and not others. Confirming the principle of inheritance in the caliphate, and the necessity of war against the oppressive, tyrannical Umayyads who took the caliphate unjustly, and promising the Muslims just rule at the hands of the Abbasid caliphs.

Likewise, the foreign other in Abbasid prose, whether he is a writer or an addressee within the structure of the prose text, has an effective and influential presence in the pillars of the Abbasid state, no less important than the Arab element, and the relationship of the Abbasid self with the foreign other is governed by complex and multi-dimensional relationships, as it combines hostility and friendship, Between strength and weakness, and between religion and trade.

Keywords: the other; prose; Abbasi; power; The foreigner.

مقدمة:

يُعد مفهوم الآخر وأنماطه في النثر العباسي جزءًا مهمًا من درس النثر في الأدب العربي، حيث يساعد على إثراء النصوص وجعلها أكثر تنوعًا وعمقًا، ومن هنا جاء موضوع بحثي معنونًا بـ **(أنماط الآخر في النثر العباسي دراسة في نماذج مختارة)**، ولقد جاء اختياري لهذا الموضوع لعدة أسباب، أهمها/ التعرف على النثر العباسي من منظور مغاير من خلال الوقوف على أنماط الآخر في ذلك النثر، حيث يستطيع الباحث التعرف على العوالم المختلفة فكريًّا وثقافيًّا وحضاريًّا في البيئة العباسية وتأثيرها على الذات العربية.

أما عن **أهمية البحث وأهدافه** تكمن في رصد أنماط الآخر في النثر العباسي، الذي شهد صراعات داخلية لافتة للنظر، باعتباره من أقوى العصور الأدبية، فقد انفتح المجتمع العربي على مجتمعات وثقافات أخرى لها بالغ الأثر في تحول البيئة العربية، وقد استعان الباحث **بالمنهج الفني** لاستنباط صورة الآخر وتشكلاته في السياق النثري العباسي، وهو من أنسب المناهج النقدية لذلك، حيث يستنبط الجمال الكامن داخل النصوص النثرية، ويسهم في رصد تشكلات الآخر داخل تلك النصوص.

وقد جاءت **خطة الدراسة** في مقدمة وتمهيد ومبحثين، كالآتي:

المبحث الأول/ "الآخر/السُلطة.

المبحث الثاني/ "الآخر/الأجنبي.

التمهيد:

يشير مصطلح (الآخر) إلى كُلِّ ما هو مختلف عن الذات، فهو مصطلح غامض يتطلب تحديدًا دقيقًا وتوافقًا مفهوميًّا واضحًا، فمعنى (الآخر) يختلف باختلاف السياق، فقد يشير إلى شخص مختلف في العرق أو الدين أو اللّغة أو السياسة أو الحضارة أو الثقافة ... الخ، والآخر بهذا التصور يتشكَّل وفقًا لاختلاف الثقافات والأعراف والأديان والطبقات الاجتماعية والقيم والمعتقدات والزمان والمكان وحالات الذات وموقفها منه، فهو مصطلح يرتبط بعلاقات متشابكة مع الذات، فهو بذلك ليس مجرد كائن منفصل؛ بل هو انعكاس لواقعنا وتفاعلاتنا، فقد يرتبط بالهوية بوصفها ذات، وهو في الوقت نفسه غيري الذات، ويمكن أيضًا أن يرتبط بمصطلح "الاستشراق" بوصفه آخر غربيًا، ودراسته ضرورية لفهم الذات والمجتمع والعالم؛ لذلك وقف عنده علماء النفس والفلسفة والاجتماع.

وبما أن الذات تنقسم إلى مجموعة من الأنوات، فإنها في الوقت نفسه تنشطر إلى "أنا" و"نحن"، فنحن آخر بالنسبة للأنا؛ كما يمكن أن تدمج "الأنا" في "نحن" ليكونا ذات واحدة في مواجهة الآخر، فالآخر بذلك " **حقيقة موجودة داخل كلّ منا، يملأ الوجود، وهو ماثل في البصر والبصيرة، وماثل في السماع والاستماع، وماثل في الداخل والخارج، وماثل في الحقيقة والحلم**". (١)

فليس بالضرورة أن يكون (الآخر) مختلفًا عن الذات عرقيًّا؛ فقد تكون الذات نفسها منقسمة أو منشطرة أو متشظية بفعل عوامل داخلية أو خارجية إلى (أنا/ آخر)، فبذلك يمكن للآخر أن يكون جانبًا خفيًّا من الأنا.

(١) سعد سامي محمد، الأنا والآخر في المعلقات العشر، رسالة ماجستير في الأدب العربي، جامعة البصرة، ٢٠١٢م، ص٤.

المبحث الأول: "الآخر/السُلطة في النثر العباسي":

كانت طبيعة الوضع السياسي في العصر العباسي تحتم وجود علاقات متشابكة بين المثقف والسُلطة المتمثلة في الخلافة والولاة والعمال، وكانت تلك العلاقات تخضع لرقابة السلطة وتحتكم بأمرها؛ ولا شك أن ذلك كان له أثر بارز في نثر ذلك العصر؛ وذلك عبر محكات رئيسة أولها المحك الديني، فالدولة العباسية التي حكمت أجناسًا وأعراقًا مختلفة كانت امتدادًا للدولة الإسلامية التي اتخذت علاقتها بالآخر من قيم دينية نبيلة وسمات أخلاقية تتمثل في التآزر والتصالح مع الآخر، فالمسلمون انطلاقًا من قيم دينهم لا ينظرون إلى الآخر بأنه أقل شأنًا منهم؛ بل فُرض عليهم التعايش السلمي واحترام من سالمهم من الناس.

لذلك فإن الوقوف على ظاهرة الآخر/السُلطة يتطلب تعيين مكان الأنا من الحدث، وتحديد علاقتها بالآخر؛ فالأنا بوصفها العنصر العربي أقرب إلى الآخر السلطوي في الجنس والعرق من غيره من الأجناس والأعراق التي امتزجت في كيان العصر العباسي الثقافي، فتحديد الأنا يليه بالتبعية تحديد الآخر السلطوي، وما يؤسس له الآخر من مظاهر ودلائل في الكتابات النثرية في العصر العباسي، وما تمثله تشكلات الآخر في الخطب والوصايا والمنافرات والتوقيعات والرسائل.

إن علاقة المثقف بالسلطة السياسية بشكل عام علاقة متحركة وليست جامدة في المكان والزمان، حيث إن "**الشواهد التاريخية القديمة والحديثة، توضح أن العلاقة بين المثقف والسلطة السياسية علاقة ديناميكية تُفهم من خلال تفاعلها الزماني والمكاني، تحكمها عوامل داخلية وخارجية تسهم في توضيح طبيعة العلاقة الإشكالية، حيث إن صورة تلك العلاقة تتحدد من خلال الترتيب البنيوي، الذي يتخذ من مفهوم الأولويات نهجًا تراتبيًا قائمًا على معادلة الترتيب التفاضلي، وهذا الأخير يتخذ من نوعية المستويات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بوصلة لتحديد آلية الاختيار والتفضيل**"[(١)]

وإن السلطة السياسية في أي مكان وزمان لا يمكن لها الاستغناء عن شرعية ثقافية تبني عليه مشروعيتها السياسية؛ ولما كانت الدولة العباسية قد قامت في بدايتها على الانتصار للموالي الذين أنقص الأمويين من قيمتهم واعتمدوا في دولتهم على العنصر العربي، فإن المشروعية الثقافية للعصر العباسي زادت من قيمة الأدباء والعلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، دون النظر إلى العرق أو الجنس.

(١) فضيل أحمد غباري، أزمة الثقافة وأزمة السلطة بين التوصيف والتوظيف، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، برلين، الطبعة الأولى، ٢٠١٨، ص٣.

وعند الحديث عن الآخر/السلطة لا نقصد –بالضرورة– السلطة السياسية، فالسلطة في شكل الآخر لا تمتلك شكلًا محددًا أو ثابتًا، فصحيح أن السلطة السياسية هي النموذج الأكثر ارتباطًا في الوعي البشري؛ ولكن ثمة فروع من السلطة تختلف عن ذلك النموذج، فقد يكون الآخر السلطوي فردًا أو جماعة تمتلك القدرة على التأثير في الانتاج النثري للأديب دون أن يكون لها سلطة أو مشروعية سياسية للقيام بذلك.

–ابن العميد (*) وعلاقته بالآخر/ السلطة:

يمكن التعرض لمظاهر الآخر/السلطة في البيئة العباسية من خلال تعقب حركة النثر في فن الترسل التي أبرزت عددًا من الأدباء من ذوي الأصول غير العربية حيث يمكن الوقوف على علاقتهم بالسلطة العربية الإسلامية، ورصد تشكلات الآخر السلطوي فيما ترجموه وما ألفوه من نثر في العصر العباسي، ومن ذلك ابن العميد.

إن ركن الدولة الآخر/السلطة قرر أن يتخذ من ابن العميد ورسائله سلاحًا فتاكًا في مواجهة أعدائه، وهذا النوع من العلاقة بين الأديب وبين الآخر السلطوي يمثل في الواقع طبيعة غالبة من اتخاذ فن الترسل كسلاح للسلطة و "**هو أسلوب في الدّعاية كان يجري عن طريق الرسائل؛ كما تجري الدّعاية اليوم عن طريق الصّحف السياسية**"(١)، وعلى إثر ذلك يقول ابن العميد لابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة :

"**كتابي وأنا مترجحٌ بين طمع فيك، وإياسٍ منك، وإقبالٍ عليك، وإعراضٍ عنك؛ فإنك تدلي بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة؛ أيسرها يوجب رعاية، ويقتضي محافظةً وعناية؛ ثم تشفعهما بحادث غلولٍ وخيانة، وتتبعهما بآنف خلافٍ ومعصية؛ وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك.**" (٢)

في هذه الرسالة لابن بلكا تتضح العلاقة المتشابكة بين الآخر في صورتين/ (صورة الآخر/السلطة، ركن الدولة) و(الآخر/المتمرد، ابن بلكا)، فيذكر ما لابن بلكا من حُرمةٍ سابقة، وخدماتٍ جليلة للدولة (الآخر/السُلطة)، وتذكيره بأياديه البيضاء أملًا في أن يُخجِلَه، ورغبةً في عدم خسارة صداقته.

(*) ابن العميد (ت٣٦٧هـ) هو الكاتب محمد بن الحسين بن محمد أبو الفضل بن أبي عبد الله المعروف بابن العميد لقب والده بذلك على عادة أهل خراسان، بعد أن انتظمت الممالك الإسلامية في العصر العباسي وامتدت أطرافها، وتم اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم حتى أدرك العرب أن عند الأعاجم علمًا غير العلم الذي يعرفون، وأنهم لا قبل لهم بمنافسة الأمم المتحضرة التي غلبوها على أمرها، إلا إذا أخذوا علومها، وجاروها في المدنية واتخذوا من أعلامها ومفكريها جنودًا لخدمة أهدافهم السلطوية، وكان ابن العميد واحدًا من هؤلاء.

(١) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، ٢٠١٣، ٢٤٨/٢.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحه، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٣/٣.

وفي هذا الأسلوب الذي لجأ إليه ابن العميد، دلل على قوة بصيرته، وثاقب نظره للمستقبل البعيد، حيث أظهر لابن بلكا خطأه في الخروج على ركن الدولة، ثم ظهرت عودته مرة ثانية إلى التردد، مع بيان إمكانية استخدام القوة، وحسم الموقف، ثم بيّن ابن العميد لابن بلكا أن هذا الخطأ الذي ارتكبه ليس بِدْعًا، فكلّ الناس يخطئون؛ لكن القليل منهم من يرجع إلى الحق ويعود إلى جادة الصواب والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، ثم يلمّح ابن العميد في رسالته بأن الأعداء هم وحدهم الذين يرقبون استمراره في الغي؛ لذلك يستحثّه على الرجوع إلى الحق، وطاعة أولي الأمر، وبهذا يكون ابن العميد قد وصل إلى كل ما أراده من رسالته.

يقدم ابن العميد فيما سبق صورة مثالية للآخر/السلطة (ركن الدولة)، حيث يذكر حرمتها، وحقوقها، وأياديها البيضاء على ابن بلكا؛ لتذكير ابن بلكا بالجميل الذي قدمته له السلطة؛ كما يقدم صورة متناقضة للآخر/المتمرد (ابن بلكا)، فهو يذكر إيجابياته كخدمة سابقة، ثم ينتقل إلى انتقاد أفعاله الحالية، وترتبط هاتان الصورتان بشكل وثيق، فصورة السلطة المثالية تعمل كمرآة تعكس صورة المتمرد، وتبرز خطأ أفعاله؛ كما يؤثر كل من الصورتين على الأخرى، فصورة السلطة تؤثر على سلوك المتمرد، وصورة المتمرد تؤثر على نظرة السلطة إليه.

ومنها قوله أيضًا:

"**خيرُ القول ما أغناك جِدُّه، وألهاك هزله، الرُّتَبُ لا تُبْلَغ إلاّ بتدرّج وتدرُّب، ولا تُدْرَك إلاّ بتجشُّم كلفة وتصعُّب، اجتنبْ سلطانَ الهوى، وشيطانَ الميل، وغَلَبَة الإرادة، المَزْحُ والهَزْلُ بابان إذا فُتِحا لم يُغْلَقا إلاّ بعد العُسْرِ، وفحلان إذا أُلْقِحا لم يُنْتِجا غير الشّرّ.**" (١)

إن تلك الحكم والمقتطفات لابن العميد لا تخدم الآخر السلطوي وإنما تعبر عن مكنون الأديب وتنبأ عن ما تعتريه نفسيته من قلق، فقوله: (خير القول ما أغناك جده، وألهاك هزله) يعبّر عن مدى اتزان الأديب القادم من خراسان، وحرصه على ألا يسقطه القول في خلاف مع السلطة، وقوله (الرتب لا تبلغ إلا بتدرج وتدرب ولا تدرك إلا بتجشم كلفة وتصعب)، إنما يؤكد على فهمه لطبيعة دوره في المجتمع العباسي، وما كابده للارتقاء والوصول إلى مكانته في القصر البغدادي، ومدى الصعوبة التي واجهها لنيل مراده، وأما قوله: (اجتنب سلطان الهوى وشيطان الميل وغلبة الإرادة)، فما هو إلا رسائل يعزز بها

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ١٩٦/٣، ١٩٧.

ثقته في نفسه في مواجهة واقع العصر العباسي، الذي مال فيه أقرانه إلى اتباع أهوائهم في اللهو والمجون، وكذلك قوله: (المزح والهزل بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد عسر، وفحلان إذا ألقحا لم ينتجا غير الشر)، فهو قول شديد البلاغة يبعث في النفس النفور من الهزل والمزاح، فنحن أمام شخصية ترى في الهزل والمزاح هلاكها، وترى في الاتزان والالتزام بالجد والاجتهاد نجاتها ومفتاح نجاح علاقتها مع الآخر/السلطة في المجتمع العباسي، وعلى الرغم من ميله إلى السجع والمزاوجة في مثل هذه الأقوال، فهي تصدر عن حكمة وطَبْع ثري بالتجربة، وملاءمة بين اللفظ والمعنى.

وعلى ذلك يرسم ابن العميد صورة متوازنة للآخر السلطة، فهي قوة تجذب وتبعد، هدف يسعى إليه الناس وتحدٍ يجب اجتيازه، وهي أيضًا قوة فاسدة إذا لم تقيدها الأخلاق والقيم؛ كما أنها مسؤولية كبيرة يجب أن يتحملها الأشخاص المؤهلون، وعلى كل/ إن ابن العميد يحذر من مغبة السلطة، ويدعو إلى استخدامها بحكمة ومسؤولية.

ولعل أكثر ما يوضح تأثر ابن العميد بالآخر/السلطة، ويجلي الغموض عن كنية تلك العلاقة عنده ما يروي عن رأيه في بغداد عاصمة الدولة العباسية وحاضرة العالم الإسلامي آنذاك، إذ يقول: "**إذْ سُئِل لمّا سافر إلى بغداد ورجع منها: كيف وجدْتَها؟ قال: بغداد في البلاد، كالأستاذ في العباد.**" (١)

يتضح أن ابن العميد اتخذ من بغداد ومن المجتمع العباسي قبلة للعلم والثقافة، وجعل منها معلمًا وجعل من نفسه تلميذًا، وذلك يوضح طبيعة العلاقة بين الأديب والآخر/ مكان السلطة، فبالرغم من وصولهم إلى أعلى مراكز الحكم في المجتمع العباسي غير أنهم حفظوا لذلك المجتمع الآخر/السلطة فضله عليهم، وحافظوا على تلك العلاقة (الأستاذ/التلميذ) واتخذوا منها سبيلًا لعرض آدابهم وفنونهم النثرية.

ويمكن أن يستشف علاقة الآخر الداخلي بالآخر السلطة في خطبة محمد النفس الذكية الذي يحرض على الثورة ضد السلطة العباسية.

-محمد النفس الذكية (*) والآخر/ السلطة:

روى **أبو على القالي** (ت ٣٦٦ هـ) جزءًا من خطبة النفس الزكية؛ إذ يقول:

" **... إن أحق الناس بالقيام في هذا الدين أبناءُ المهاجرين الأولين والأنصار المواسين، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك !، وعملوا بغير كتابك، وغيروا**

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ١٨٣/٣.

(*) بموت أبي العباس وتولي أخيه عبد الله بن محمد (أبي جعفر المنصور) الخلافة، اندلعت ثورة محمد النفس الزكية بالمدينة المنورة في حوالي عام ١٤٥ هـ، مما أدى إلى صراع عنيف بين الطرفين استخدمت فيه الخطابة بوصفها أحد أهم أدوات التعبئة والتأثير.

عهدَ نبيك، وآمنوا من أخفتَ وأخافوا من آمنتَ، فأحْصِهم عددًا، واقتُلْهم بـددا ولا تبـق على الأرض منهم أحدًا ... ". (١)

في هذه الخطبة تتجلى رؤية الذات للآخر السلطة؛ إذ إن الـنفس الذكيـة يـدعي بأحقية أبناء المهاجرين والأنصار؛ لأن العباسيين أحلوا الحرام وحرموا الحلال، كمـا أنـه يدعو لقتل هذه الفئة، ومن الواضح أن محمد النفس الذكية استخدم هذه الخطبة مـن أجـل تحريض الناس لمقاومة فساد العباسيين؛ إذ إنه كشف عن مساوئهم دينًا وحكمًا؛ لذلك تعـد هذه الخطبة من أهم الوثائق التاريخية التي تكشف عن عمق الصراع السياسي والديني فـي العصر العباسي، وتبرز فيها بشكل جلي صورة "الآخر" كسلطة مستبدة تعمل على تحريف الدين وتغييره عن مساره الصحيح، فالخطبة تتهم السلطة الحاكمة بانتهاك حرمات الـدين، وتغيير أحكامه، وتخويف المؤمنين، مما يستدعي القضاء عليها.

إن هذا التصور للسلطة كـ"آخر" معاد للدين والمـؤمنين يعكـس حالـة اليـأس والإحباط التي انتابت بعض المسلمين في ذلك العصر، ودفعتهم إلى التفكيـر فـي الثـورة والتمرد.

-الآخر السلطة وأحقيته في الخلافة:

اعتمدت السلطة العباسية/ الآخر السلطة على أفكار وعقائد دينيـة تـستمد منهـا مشروعيتها؛ إذ وصل الاعتقاد عند الناس إلى درجة أن رأوا في العباسيين أفـضل الخلـق بعد الأنبياء والرسل، و" **قام العباسيون بتوظيف ملكة الخطابة عنـد المـسلمين العـرب، وأظهرت وظائف إعلامية كان لها أبلغ الأثر في سياسة الدولة العباسية**" (٢) وبدأ مفهـوم الخطبة السياسية في العصر العباسي منذ قيام دولتهم؛ حيث إن انتزاعهم الملك بالقوة مـن الأمويين، أوجب وجود معارضين يحدثون اضطرابًا وارتباكًا في المجتمع العباسي، فلجأوا إلى نظرية الحق الإلهي الذي يمنح الخليفة العباسي حق ممارسة السلطة المطلقة، ومن ذلك خطبة المنصور:

"**أيها الناس: إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه، وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه، فقد جعلنـي الله عليـه قفلًا، إن شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم، وقسم أرزاقكم، فإن شاء أن يقفلنـي عليهـا أقفلني، فارغبوا إلى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم مـن فـضله مـا أعلمكم به؛ إذ يقول: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسـلام**

(١) شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، مصر، القاهرة، دار المعارف، ط٨، ١٩٦٦م، ص٤٤٩.

(٢) إيليا حاوي، فن الخطابة وتطوره عند العرب، بيروت، دار الثقافة للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٩٧، ص٩.

دينا، أن يوفقني للرشاد والصواب، وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم".(١)

ويظهر هنا حضور الآخر السلطة/ الخليفة العباسي ورغبته الملحة في الحفاظ على الحكم؛ إذ نصب نفسه سلطاناً لله في أرضه مؤيدًا في سياسته بتوفيق الله ودعمه، فبنو العباس يرون أن الله اصطفاهم للخلافة دون غيرهم، ويعتقدون أن وصولهم إلى الحكم هو نتيجة لجهودهم الحربية ضد أعدائهم الأمويين.

إن الآخر العباسي الحاكم له حضور قوي وفعال يثبت من خلاله أحقيته في الخلافة، وقد استند إلى مجموعة من الأسس التي تؤكد شرعيته، فاحتكم إلى الأساس التاريخي والسياسي والديني؛ لتجرد شرعية غيره في الحكم والسلطة.

كما يظهر ذلك في **خطبة أبي العباس السفاح** عند توليه الخلافة، حيث تحدث عن حقهم الشرعي في الخلافة الذي سلبه منهم بنو أمية، فيقول:

"**ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا بها واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا وتدارك بنا على الذين اُستُضعفوا في الأرض، وختم بنا كما فتح، وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث آتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله...**" (٢)

يستنتج مما سبق ذكره أن خطبة أبي العباس السفاح السياسية جاءت في ثلاث نقاط رئيسة: الأولى/ محاولة إبراز أحقية بني العباس بالخلافة دون غيرهم؛ مصدقاً لمبدأ الوراثة في الخلافة، والثانية: الحرب على بني أمية حيث لقبهم بالظالمين والمستبدين الذين أخذوا الخلافة بغير حق، وهذا دأب كل حاكم جديد في علاقته مع سابقه، حيث يبرر لحكمه ويحط من قيمة سابقيه، أما الثالثة/ وعده للمسلمين بالحكم العادل على يد خلفاء العباسيين.

ومن ذلك أيضًا خطبة داود بن علي العباسي:

ذكر العتبي أو غيره أن داود بن علي بن عبد الله بن العباس خطب الناس في أول موسم ملكه بنو العباس، بمكة. فقال:

شكراً شكراً، إنا والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهراً، ولا لنبني فيكم قصراً، أظن عدو الله أن لن نقدر عليه أن روخي له من خطامه، حتى عثر في فضل زمامه! فالآن

(١) أحمد ذكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية بيروت،ج٣، ص٢٧.

(٢) ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة، مج٣، ص٢٤٩.

حيث أخذ القوس باريها، وعادت النبل إلى النزعة، ورجع الملك في نصابه في أهل بيت النبوة والرحمة. والله لقد كنا نتوجع لكم ونحن في فرشنا. أمن الأسود والأحمر، لكم ذمة الله، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكم ذمة العباس، لا ورب هذه البنية – وأومأ بيده إلى الكعبة – لا نهيج منكم أحداً. (١)

يظهر "الآخر" بشكل أساسي في هذه الخطبة ويشير إلى السلطة الحاكمة، فالآخر ليس مجرد شخصية سياسية؛ بل هو مرتبط بأسرة النبوة والعباسيين، وبالتالي يحمل في طياته بعدًا دينيًا وتاريخيًا.

فداود بن علي العباسي يقدّم في الوقت نفسه صورة مثالية للحاكم كشخصية تجمع بين الدين والسياسة، والقوة والرحمة، ويتم ربط حق الحاكم في السلطة بانتمائه إلى آل البيت، وبوجوده عقد اجتماعي يربطه بالشعب، هذه الصورة المثالية تهدف إلى تعزيز شرعية الحاكم وتحفيز الولاء الشعبي.

ومن خطبه المشهورة أيضًا التي خصصها لتأييد سياسة ابن أخيه (السفاح)، قوله: " **الحمد لله شكرًا شكرًا شكرًا، الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ .. أيها الناس، الآن اقشعت حنادسُ الدنيا، وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها، وطلعت الشمس من مطالعها، وبزغ القمر من مبزغه، ورجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة بكم، والعطف عليكم.** (٢)

تظهر هنا ملامح انتصار الذات العباسية على الآخر الأموي وهزيمته واستعادة الحق لأهله؛ لأنهم أهل بيت النبي محمد – صلى الله عليه وسلم، فانتصارهم وإعادة الحق إلى أهله بمثابة حقبة جديدة من العدل والنور بعد فترة طويلة من الظلام والاضطراب، فالخطيب العباسي يظهر المفارقة بين حكم الآخر الأموي وحكم العباسيين على يد السفاح القائم على الرحمة والعطف؛ لأنهم من نسل رسولنا الكريم –صلى الله عليه وسلم، فداود بن علىّ يبني لحكم العباسيين وفي المقابل يهدم حكم الآخر.

وفي النهاية يمكن القول:

إن الآخر "السُلطة" يتجلى في الشخصية الحاكمة كفرد أو السلطة كجموع (العباسيون)، التي تمثّل جهة معينة، سواء أكانت سلطة سياسية أم اجتماعية أم دينية، ويتم استخدام هذا النوع من الآخر في النصوص النثرية؛ لإظهار التوازنات والصراعات بين القوى المختلفة في المجتمع.

(١) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مصر، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٧م، ٤٢٠/٧.

(٢) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤٢٦/٧.

كما أن الآخر السلطة يحاول دائمًا إبراز أحقية بني العباس بالخلافة دون غيرهم؛ مصدقًا لمبدأ الوراثة في الخلافة، وضرورة الحرب على بني أمية الظالمين المستبدين الذين أخذوا الخلافة بغير حق، ووعدهم للمسلمين بالحكم العادل على يد خلفاء العباسيين.

المبحث الثاني: "الآخر/الأجنبي في النثر العباسي"(*):

ظهرت في بدايات العصر العباسي ثقافات أجنبية متعددة مثل: اليونانية، الهندية، والفارسية، وكان السبب وراء هذا الانتشار الواسع هو المدارس والترجمات، حيث "**يمتاز العصر العباسي الأوّل بأن من تولّى فيه عرش بغداد كان من الخلفاء العلماء، فرغبوا في العلم وإجلاس العلماء والأدباء وسهّلوا نزوحهم إليهم وأجروا الأرزاق عليهم.**" (١) حيث اتسمت الأدبيات النثرية في العصر العباسي بغنى ثقافي وتنوع أدبي كبيرين، وظهرت فيها ملامح الآخر/الأجنبي بشكل ملحوظ، نتيجة امتياز العصر العباسي بالانفتاح على الثقافات الأخرى، حصيلة الفتوحات الإسلامية والتبادل التجاري والثقافي مع الحضارات المختلفة؛ لذلك سيقف هذا المبحث عند ذلك التأثير، ويبرز كيف تم تصوير الآخر/الأجنبي في نصوص نثرية مختارة من الأدباء العباسيين، متناولًا بعض النماذج النثرية التي تعكس هذه الملامح.

إن نظرة الأدباء في نصوصهم النثرية تجاه الآخر تميزت بمزايا عدة، منها: الفضول والاستكشاف، حيث يظهر اهتمام العرب بالآخر من خلال الرحلات والاستكشافات، التي كانت تهدف إلى فهم الثقافات الأخرى والتعلم منها، بالإضافة إلى التبادل الثقافي الذي يتجلى في استيعاب وترجمة الأعمال الأدبية والعلمية من حضارات أخرى، ما يعكس اعترافًا بقيمة المعرفة الأجنبية، وأخيرًا فإن تلك النظرة لم تخلو من سمات التمييز والتعميم حيث يمكن ملاحظة نظرة تمييزية أو تعميمية تجاه الآخر/الأجنبي في بعض النصوص، تعكس التحديات التي كانت تواجه التفاعل بين الثقافات المختلفة.

(*) إن الآخر/الأجنبي في النثر العباسي كان يتجلى في الشخصيات والأحداث والأمكنة التي تخرج عن إطار المألوف العربي الإسلامي، وكان يُعبر عنها بطرق متعددة، منها: الإعجاب والتقدير ومنها النقد والرفض، وبرز ذلك من خلال عدة فنون نثرية، منها: التأريخ والسير مثل تاريخ الطبري، الذي يغطي الفترات الإسلامية المبكرة وصولًا إلى العصر العباسي، ويقدم وصفًا للشعوب والحضارات الأخرى التي احتكت بها الدولة الإسلامية، ويعرض الطبري الأحداث التاريخية بموضوعية، تسمح للقارئ بفهم كيف كان يُنظر إلى الآخر/الأجنبي في تلك الفترة، ومنها الخيال الأدبي، مثل: قصص ألف ليلة وليلة، التي تُعد من أبرز نماذج الأدب العباسي، حيث ضمت شخصيات من أماكن مختلفة تصوّر الآخر/الأجنبي بطرق متنوعة، ما بين الإعجاب بالحكمة والمعرفة التي يحملونها، وبين الحذر والتوجس من الغرباء.

(١) شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط٨، ص٨٩.

الآخر الأجنبي والبيئة العباسية:

يظهر هذا الملمح في المقامة الكوفية للهمذاني؛ إذ يقول:

"**حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت وأنا فتى السن أشد رحلي لكل عماية، وأركض طرفي إلى كل غواية، حتى شربت من العمر سائغه، ولبست من الدهر سابغه، فلما انصاح النهار بجانب ليلى، وجمعت للمعاد ذيلي، وطئت ظهر المروضة، لأداء المفروضة، وصحبني في الطريق رفيق لم أنكره من سوء، فلما تجالينا، وخبرنا بحالينا، سفرت القصة عن أصل كوفي، ومذهب صوفي، وسرنا فلما أحلتنا الكوفة ملنا إلى داره، ودخلناها وقد بقل وجه النهار واخضر جانبه ولما اغتمض جفن الليل وطر شاربه، قرع علينا الباب، فقلنا: من القارع المنتاب؟ فقال: وفد الليل وبريده، وفل الجوع وطريده، وحر قاده الضر، والزمن المر، وضيف وطؤه خفيف، وضالته رغيف، وجار يستعدى على الجوع، والجيب المرقوع، وغريب أوقدت النار على سفره، ونبح العواء على أثره، ونبذت خلفه الحصيات، وكنست بعده العرصات، فنضوه طليح ، وعيشه تبريح، ومن دون فرخيه مهامه فيح.**

قال عيسى بن هشام: فقبضت من كيسي قبضة الليث، وبعثتها إليه وقلت: زدنا سؤالا، نزدك نوالا، فقال: ما عرض عرف العود، على أحر من نار الجود، ولا لقي وفد البر، بأحسن من بريد الشكر، ومن ملك الفضل فليؤاس، فلن يذهب العرف بين الله والناس، وأما أنت فحقق الله آمالك، وجعل اليد العليا لك.

قال عيسى بن هشام: ففتحنا له الباب وقلنا: ادخل، فإذا هو والله شيخنا أبو الفتح الإسكندري، فقلت: يا أبا الفتح، شد ما بلغت منك الخصاصة. وهذا الزي خاصة، فتبسم وأنشأ يقول: لا يغرنك الذي أنا فيه من الطلب

أنا في ثروة تش ق لها بردة الطرب

أنا لو شئت لاتخذ ت سقوفا من الذهب" (١)

وفي هذه المقامة استخلاص لصورة الحياة الاجتماعية في العصر العباسي، حيث اجتمعت في هذه المقامة متوسطة الطول في نصها، بسيطة اللفظ في مفرداتها، مجموعة البناءات الاجتماعية التي شكّل بها الهمذاني فن المقامة، منها/ اللقاء بالغريب حيث إن الشخصيات التي يلتقي بها ابن هشام في رحلته، بما في ذلك الرفيق الذي ينضم إليه في الطريق، تمثل "الآخر الأجنبي" الذي يأتي بتجارب وحكايات مختلفة، هذه اللقاءات تعكس التفاعل بين الذات والآخر وتأثير هذه التفاعلات على فهم الذات وتوسيع آفاقها.

(١) محمد محي الدين عبدالحميد، مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني، تقديم شريف سيد عفت، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م، المقامة الكوفية ص٤٣.

كما تشير المقامة إلى التنوع الثقافي والفكري، حيث يقف الهمذاني عند أصول بعض الشخصيات، مثل: الكوفي والبغدادي وغيرها من البلدان والأقطار؛ مما يعكس التنوع الثقافي والفكري الذي يعرض القارئ على مختلف الأفكار والمعتقدات.

وعلاوة على ذلك نواجه تلك الشخصيات صعوبات مختلفة، منها: الجوع والفقر؛ لكن بالتعاون والمساعدة المتبادلة، يمكن التغلب على هذه الصعوبات، وهي تيمة غالبة في المقامات، وهذا يعكس فكرة أن التفاعل مع الآخر يمكن أن يكون مصدر قوة ودعم في عقلية الهمذاني.

وعلى كل/ تقدم مقامة عيسى بن هشام صورة معقدة ومتعددة الأبعاد عن علاقة "الآخر الأجنبي" بالبيئة العباسية، حيث تتداخل فيها قضايا الهوية والانتماء، والثروة والقناعة، والحكمة والشعر، هذه القصة تعكس أيضًا أهمية الضيافة والكرم في الثقافة العربية والإسلامية.

الآخر الأجنبي والسلطة:

ويتجلى ذلك في استرسال ابن المقفع ناصحًا السلطان، فيقول له:

" **عوّد نفسك الصبر على من خالفكَ من ذوي النصيحة، والتجرع لمرارةِ قولهم وعذلهم، ولا تسهلن سبيلَ ذلك إلا لأهلِ العقلِ والسن والمروءةِ، لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئ به سفيهٌ أو يستخفُ به شانئ. لا تتركن مباشرة جسيم أمرك، فيعود شأنك صغيرًا، ولا تلزمن نفسك مباشرة الصغير، فيصير الكبير ضائعًا.**

واعلم أن مالك لا يغني الناس كلهم، فاخصص به أهل الحق، وأن كرامتك لا تطيق العامة كلها، فَتَوَخّ بها أهل الفضل، وأن قلبك لا يتسع لكل شيء، ففرغه للمهم، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك، وإن دأبت فيهما، وأن ليس لك إلى إدامة الدأب فيهما سبيل، مع حاجة جسدك إلى نصيبه منهما، فأحسن قسمتهما بين عملك، ودعتك".[1]

يقدم النص للمتلقي صورة معقدة للعلاقة بين الحاكم/ السلطة والآخر؛ إذ إن يتجاوز حدود الزمان والمكان، ويتحدث عن قضايا إنسانية عامة تتعلق بالسلطة والتأثير والقيادة، فابن المقفع/ الآخر الأجنبي يحث الذات الحاكمة على الاستماع إلى آراء الآخرين؛ ولكن في الوقت نفسه يحذره من الانسياق وراء كل من يدعي النصح؛ كما يشدد على أهمية الحكمة والتمييز في التعامل مع مختلف الأشخاص.

(١) ابن المقفع، الأدب الكبير، أحمد ذكي باشا، مطبعة مدرسة محمد علي الصناعية، ط١، ١٩١٢م، ص١٢.

وينتقل ابن المقفع إلى بيان أصناف الملوك، فيقول:

أعلم أن الملك ثلاثة: ملك دين، وملك حزم، وملك هوىً. فأما ملك الدين، فإنه إذا أقام للرعية دينهم، وكان دينهم هو الذي يعطيهم الذي لهم، ويلحق بهم الذي عليهم، أرضاهم ذلك، وأنزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم. وأما ملك الحزم، فإنه يقوم به الأمر، ولا يسلم من الطعن والتسخط، ولن يضر طعن الضعيف مع حزم القوي. وأما ملك الهوى، فلعب ساعة، ودمار دهر. (١)

يقدّم ابن المقفع/ الآخر الأجنبي تصنيفاً عميقًا لأنواع السلطة، وتسلط الضوء على العلاقة المعقدة بين الحاكم والمحكوم؛ فقد قسم الملوك إلى/ ملك الدين، وملك الحزم، وملك الهوى، وكل صنف من هذه الأصناف له خصوصية في التعامل مع الآخرين، وعلى ذلك يرى ابن المقفع أن السلطة المثلى هي التي تجمع بين الدين والحزم، أي أن الحاكم يجب أن يكون عادلًا قويًا في الوقت نفسه، أما ملك الهوى فهو أسوأ أنواع الحكم؛ لأنه يؤدي إلى تدمير الدولة والشعب.

و مما جاء في رسالة الصحابة وصف ابن القفع حكام بني أمية بوالاة الشر وهو وصف لا شك يثلج صدر هذا الخليفة العباسي؛ إذ يقول مخاطبًا إياه:

أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين وأتم عليه النعمة وألبسه المعافاة والرحمة فإن أمير المؤمنين حفظه الله يجمع مع علمه المسألة والاستماع كما كان ولاة الشر يجمعون مع جهلهم العجب والاستغناء ويستوثق لنفسه بالحجة ويتخذها على رعيته فيما يلطف له في الفحص عن أمورهم كما كان أولئك يكتفون بالدعة ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع العذر في الامتناع أن يجترئ عليهم أحد برأي أو خبر مع تسليط الديان. وقد عصم الله أمير المؤمنين حين أهلك عدوه وشفى غليله ومكن له في الأرض وآتاه ملكه وخزائنها من أن يشغل نفسه بالتمتع والتفتيش والتأثل والإخلاد وأن يرضا ممن آوى بالمتاع به وقضاء حاجة النفسي منه وأكرم الله أمير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغاره إياه وذلك من أبين علامات السعادة وأنجح الأعوان على الخير وقد قص الله عز وجل علينا من نبأ يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه وآتاه الملك وعلمه من تأويل الأحاديث وجمع له شمله وأقر عينه بأبويه وأخوته أثنى على الله عز وجل بنعمته ثم سلا عما كان فيه وعرف أن الموت وما بعده هو أولى فقال: توفني مسلماً وألحقني بالصالحين. (٢)

(١) ابن المقفع، الأدب الكبير، ص١٨-١٩.

(٢) ابن المقفع، آثار ابن المقفع، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٩م، ص٣٠٩.

إن المقارنة التي يقيمها ابن المقفع بين حكام بني أمية وحكام العباسيين تعكس الأيديولوجيا السياسية التي قام عليها الحكم العباسي، وهي أيديولوجيا تعتمد على الدين والعلم والعدل؛ كما يظهر الآخر الأجنبي وعيًا تاريخيًا عميقًا، حيث يقارن بين مرحلتين تاريخيتين مختلفتين ويبرز الإيجابيات والسلبيات في كل منهما.

ويهدف الآخر الأجنبي من ذلك إلى تقديم صورة إيجابية عن الخليفة العباسي، وفضائله وأخلاقه الحميدة؛ كما يتم تقديم العباسيين كحكام عادلين وعقلاء، يستحقون ولاء الرعية.

كما يدعو ابن المقفع أمير المؤمنين إلى الثقة في جند خراسان معددًا خصالهم المميزة التي أهمها الوفاء والسمع والطاعة، إذ يقول:

" من الأُمور التي يُذْكَرُ بها أمير المؤمنين — أمتع الله به — أمر هذا الجند من أهل خراسان؛ فإنهم جندٌ لم يُدْرَك مِثْلُهم في الإسلام، وفيهم مَنَعَةٌ بها يتم فضلهم، إن شاء الله، أمَّا هم: فأهلُ بصر بالطَّاعة وفضل عند الناس، وعَفَاف نفوس وفروج، وكفٍّ عن الفساد وذُلٍّ للولاة فَهَذه حالٌ لا نعلمها توجد عند أحد غيرهم، وأمَّا ما يحتاجون فيه إلى المنعة من ذلك فتقويمُ أيْدِيهم ورَأيهم وكلامِهم؛ فإنَّ في ذلك اليوم اختلاطًا من رأس مُفَرِّط غَال، وتَابِعٍ مُتَحَيِّرٍ شَاكٍّ، ومَن كان إنما يصولُ على النَّاس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرَّأي والقول والسيرة فهو كراكب الأسد الذي يُوجِلُ من رآه والراكب أشد وجلا، فلو أن أمير المؤمنين كتب لهم أمانًا معروفًا بليغًا وجيزًا محيطًا بكل شيء يجب أن يقول فيه، ويكفُّوا عنه بالغًا في الحجة قاصرًا عن الغلو يحفظه رؤساؤهم حتى يقود به دهماءهم، ويتعهد به منهم من لا يؤبه له من عرض الناس لكان ذلك — إن شاء الله — لرأيهم صلاحًا، وعلى من سواهم حُجَّة وعند الله عذرًا، فإن كثيرًا من المتكلمين من قُوَّاد أمير المؤمنين اليوم، إنما عامَّة كلامهم فيما يؤمر الأمر ويُرغم الرغم أن أمير المؤمنين لو أَمَرَ الجبال أن تسير سارت. ولو أمر أن تستدبر القبلة بالصلاة فُعِلَ ذلك، وهذا كلام قلما «يرتضيه» من كان مخالفًا، وقلَّما يرد في سمع السامع إلا أحدث في قلبه ريبة وشكًا، والذي يقُولُ أهل القَصْدِ من المسلمين هو أقوى للأمر، وأعَزُّ للسُّلْطَانِ وأقْمَعُ للمُخَالف وأرضَى للموافق، وأثبت للعذر عند الله — عز وجل". (١)

تعد مقارنة ابن المقفع بين جند خراسان وبقية الجند مثالًا على كيفية استخدام اللغة والخطاب السياسي لتحقيق أهداف معينة؛ كما أنها تسلط الضوء على أهمية العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وأثر هذه العلاقة على استقرار الدولة.

(١) ابن المقفع، آثار ابن المقفع، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٩م، ص٣١١.

يسعى ابن المقفع/ الآخر الأجنبي إلى إقناع الخليفة بأهمية الاعتماد على جند خراسان في حروبه، ويقترح عليه حلولًا عملية لتحسين علاقة الخليفة بجنده، مثل: كتابة كتاب يوضح حقوقهم وواجباتهم، وهذا يعزز من استقرار الدولة.

وقد خصص الكاتب جند خرسان عن بقية الجنود، لعدة عوامل، أهمها/ الخلفية الدينية القوية؛ مما يجعلهم أكثر التزامًا بالطاعة والولاء، وقد يكون للبيئة الجغرافية القاسية في خراسان دور في تشكيل شخصية الجندي الخراساني، فجعلهم أكثر صبرًا وقوة، وربما تكون السياسات التي اتبعها الحكام السابقون مع جند خراسان قد أسهمت في بناء ولائهم.

الذات الحاكمة والآخر الأجنبي:

ويظهر هذا الملمح في رسالة المأمون إلى توفيل ملك الروم، حيث تعد هذه الرسالة نموذجًا بارزًا للخطاب السياسي في العصر العباسي، حيث تتجلى فيها العديد من الملامح الثقافية والسياسية، فيقول:

" أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت إليه من الموادعة، وخلطت فيه من اللين والشدة، مما استعطفت به، من شرح المتاجر واتصال المرافق، وفك الأسارى، ورفع القتل والقتال، فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة، وألا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوثره في معتقبه، لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم، ثم أوصل إليهم من الأمداد، وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد، هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم، موعدهم إحدى الحسنيين: عاجل غلبة، أو كريم منقلب، غير أني رأيت أن اتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة، من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية، فإن أبيت ففدية توجب ذمة، وتثبت نظرة، وإن تركت ذلك، ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة والسلام على من اتبع الهدى". (١)

تعد رسالة المأمون إلى توفيل ملك الروم من النصوص التاريخية المهمة التي تعكس صورة "الآخر الأجنبي" في الخطاب النثري في العصر العباسي، ويظهر المأمون بوصفه زعيمًا مسلمًا يوجه خطابه إلى زعيم دولة مسيحية، مستخدمًا لغة دبلوماسية قوية، ممزوجة بتهديد ضمني، وترتبط الذات الحاكمة في هذه الرسالة بصور القوة والعظمة

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة، ٧٨/٣.

والحكمة، وهي تمثل الدولة الإسلامية القوية التي تسعى إلى التوسع ونشر الإسلام، ويمثل الآخر الأجنبي في القوى المعادية للإسلام، والتي تسعى إلى إضعاف الدولة الإسلامية.

ومن الملاحظ أن علاقة الذات العباسية بالآخر الأجنبي تحكمها علاقات متشعبة ومتعددة الأبعاد، فهي تجمع بين العداء والصداقة، بين القوة والضعف، وبين الدين والتجارة.

فن التوقيعة والآخر الأجنبي:

فقد رفعت إلى **يحيى بن خالد البرمكي** رسالة ركيكة العبارة، كتبت بخط جميل فوقع " **الخط جسم روحه البلاغة، ولا خير في جسم لا روح فيه**"، ووقع ابنه جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي لبعض عماله "**قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما عدلت، وإما اعتزلت**".(١)

تعني العبارة الأولى التي وردت على لسان يحيى بن خالد جعفر البرمكي/ الآخر الأجنبي أن الخط الجميل وحده لا يكفي لجعل الرسالة ناجحة؛ بل يجب أن يكون هناك مضمون قوي وبلاغة في العبارات. أي أن الشكل الخارجي للرسالة (الخط الجميل) هو كالجسد، والمضمون هو الروح التي تحييه، وهذه التوقيعة تدلل على حضور الآخر الأجنبي بشكل قوي وفاعل في أركان الحكم العباسي.

وتعني العبارة الثانية التي جاءت على لسان الآخر الأجنبي موجهًا كلماته إلى عماله على أن هناك عددًا من الأشخاص الذين ينتقدونك وقد زاد، بينما قلة هم الذين يشكرونك؛ لذلك إما أن تقوم بتصحيح أخطائك، وإما أن تنسحب من منصبك، وهذه التوقيعة تنم عن مكانة الآخر الأجنبي في الحكم العباسي، فهو يرشد ويقوم ويصحح السلوكيات السلبية.

توقيع جعفر بن يحيى البرمكي إلى أحد عمال الأمصار "**دع الضرع يدُّر، لغيرك كما در لك**". (٢) تعكس هذه التوقيعة الفلسفة الحاكمة في العصر العباسي، والتي كانت تعتمد على تحقيق التوازن بين السلطة والقوة من جهة، والعدل والإنصاف من جهة أخرى، فالحاكم العادل هو الذي يحظى بولاء شعبه، وبالتالي يستطيع الحفاظ على استقرار دولته، ومن خلال تلك التوقيعة تظهر مكانة الآخر الأجنبي في الحكم العباسي.

(١) حمد بن ناصر الدخيل، فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٧هـ، ص١٠.

(٢) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٨٣م، ٣٠٢/٤.

وقد كتب **والي الهند** إلى المنصور يشكو من جند خرجوا عن أمره وأثاروا الفوضى واقتحموا بيت المال وأخذوا ارزاقهم منه، فوقع المنصور " **لو عدلت لم يشغبوا، ولو وفيَت لم ينهبوا**". (١)

إن رسالة المنصور إلى والي الهند/ الآخر الأجنبي، تعد قطعة تاريخية مهمة وانعكاسًا لتصورات الحاكم عن رعاياه، وعن أسباب الثورات والشغب؛ إذ يلقى المنصور بالمسؤولية عن شغب الرعية على عاتق الوالي، ويعتبر أن سبب الشغب هو عدم عدل الوالي وعدم وفائه بوعوده.

في النهاية يمكن القول/ إن الآخر الأجنبي في النثر العباسي سواء أكان أديبًا أو مخاطبًا داخل بنية النص النثري ذا حضور فعال ومؤثر في أركان الدولة العباسية، لا يقل أهمية عن العنصر العربي.

(١) نفسه، ٤/٢٩٥.

النتائج:

١) الآخر في النثر العباسي يشير إلى الشخص المختلف كليًّا عن الذات، سواء أكان ذلك من حيث الجنس أو العرق أو الديانة أو الطبقة الاجتماعية، فيمكن رؤية الآخر في شخصيات الموالي؛ كما يمكن رؤية الآخر في شخصيات الشعوب الأخرى التي تعيش في المناطق الإسلامية آنذاك.

٢) إن الآخر "السُلطة" يتجلى في الشخصية الحاكمة كفرد أو السلطة كجموع (العباسيون)، التي تمثّل جهة معينة، سواء أكانت سلطة سياسية أم اجتماعية أم دينية، ويتم استخدام هذا النوع من الآخر في النصوص النثرية؛ لإظهار التوازنات والصراعات بين القوى المختلفة في المجتمع.

٣) يحاول الآخر السلطة دائمًا إبراز أحقية بني العباس بالخلافة دون غيرهم؛ مصدقًا لمبدأ الوراثة في الخلافة، وضرورة الحرب على بني أمية الظالمين المستبدين الذين أخذوا الخلافة بغير حق، ووعدهم للمسلمين بالحكم العادل على يد خلفاء العباسيين.

٤) إن الآخر الأجنبي في النثر العباسي سواء أكان أديبًا أو مخاطبًا داخل بنية النص النثري ذا حضور فعال ومؤثر في أركان الدولة العباسية، لا يقل أهمية عن العنصر العربي.

٥) إن علاقة الذات العباسية بالآخر الأجنبي تحكمها علاقات متشعبة ومتعددة الأبعاد، فهي تجمع بين العداء والصداقة، بين القوة والضعف، وبين الدين والتجارة

المصادر والمراجع:

١) إيليا حاوي، فن الخطابة وتطوره عند العرب، بيروت، دار الثقافة للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٩٧.

٢) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٨٣م.

٣) أحمد ذكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية بيروت.

٤) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحه، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مصر، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٧م.

٦) حمد بن ناصر الدخيل، فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٧هـ.

٧) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.

٨) سعد سامي محمد، الأنا والآخر في المعلقات العشر، رسالة ماجستير في الأدب العربي، جامعة البصرة، ٢٠١٢م..

٩) شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، مصر، القاهرة، دار المعارف، ط٨، ١٩٦٦م.

١٠) فضيل أحمد غباري، أزمة الثقافة وأزمة السلطة بين التوصيف والتوظيف، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، برلين، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.

١١) ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة.

١٢) محمد محي الدين عبدالحميد، مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني، تقديم شريف سيد عفت، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م.

١٣) ابن المقفع، آثار ابن المقفع، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٩م.

– الأدب الكبير، أحمد ذكي باشا، مطبعة مدرسة محمد علي الصناعية، ط١، ١٩١٢م.